إلى اللقاء

للأستاذ كامل محمود حبيب

« إلى أبنائي الذين أحسوا لذع الفراق يوم الوداع الأول ، ولم يزالون أطفالا ، فاغرورقت عيونهم بالعبرات ، ثم كفكفوها لأني قلت لهم : ما وعال ! »

إلى اللقاء ، يا بني ، هناك على سيف البحر حيث تموج الدنيا بفلسفة الحرية في معاني الهوى والمرى .

إن الإنسان ليحن — دائماً — إلى حيوانيته الأولى فيسعى ليتحلل من أعباء الزراية والعقل وليحطم أغلال الإنسانية حين يحس أنها قد كبلته بقيود من الجدار والثوب .

يا لبؤس الحيوان حين تحصره الزريبة بين جدرانها فلا يستطيع أن ينفلت منها إلى الحقل — إلى العشب والنور والشمس والهواء ! ويا لشقاوة الطير حين يضغطه القفص بين قضبانه فلا يجد السبيل إلى روح الغابة — إلى الحرية والسعادة والجمال !

هناك على شاطئ البحر ، عند الربيع الأزرق ، يخلع المرء ثوبه فيخلع إنسانيته ليستمتع حيناً بالحيوانية ، ويشد عقله لينعم بالجهل ، ويفزع عن صوابه ليسعد بالحق .

وأنت — يا بني — طفل يلذ لك أن تنطلق إلى طفولتك

إن جلالك لاحد له ولا يفوقه جلال وقد ناء به كاهل الخليقة الضعيف ...

* * *

أيتها الشمس المشرقة عليّ اليوم ...

هل أنت تلك الشمس التي أشرقت على الرجل الأول ؟

هل نورك اليوم كنورك بالأمس ؟

هل أنت تلك التي عرفتها القرون الأولى ؟

أم أن الدهر فعل فعله فخف ضرامك وامتراك السياه ؟

اكشفي لي سرك — أيتها الشمس ...

إن لك الملايين من الأشعة ... فانفذي إليّ شعاعاً واحداً يهمس في أذني كلمة السر ويمضي ... !

رامي الراعي

لا يربطك قيد ولا يمسكك غل ولا يحدك عقل .

فإلى اللقاء ، يا بني ، على سيف البحر حيث تموج الدنيا بفلسفة الحرية في معاني الهوى والمرى .

* * *

أتذكر — يا بني — يوم أن جاء خالك يطلب إليّ أن أدعك تصحبه إلى الأسكندرية فتشبثت بي ترجوني ، لأنه شاقك أن تمرح على شاطئ البحر مرة أخرى . وتواريت أنا عند رأيك الغطير ، رأى الطفولة الوثابة ، لأني خشيت أن يضربك الأسى والحزن وأشفقت أن تعصف بك معاني الخيبة واليأس ، فتستشعر الصغار والقلة وأنت ما تزال غض الإهاب لين العود لدن العظم

لقد كان يودي أن أرافقك لولا غل الوظيفة وشواغل العيش وعنت الصيام ، فبقيت أنا هنا — في القاهرة — ترمضني الهاجرة ويمضني الفراق . ونسيت أني سأجد فقدك لاذعاً في قرارة نفسي

ولبثت ليلتك تهيئ حاجاتك ، وإن إهابك ليكاد ينقد من شدة الطرب والسرور . وأرغمتني على أن أشاطرك فرحة نفسك فصرت حيناً طفلا كبيراً قد وخطه الشيب وهدته السنون يعبث بين أطفال صغار . واستشعرت اللذة والسعادة فاندفعت أرتب لك حاجاتك بين المزاح والدعابة . ثم انحلت عزيمتك وكلّت قوتك ، فاضطجعت في فراشك تغط في نومك ، ووقفت أنا إلى جانبك أتملى سمات البهجة وقد رسمها الأمل الحلو على قسمات وجهك النائم !

وفي القطار أقبلت أقبلك قبلة الوداع ، فأحسست أنت مرارة الفراق ، فاغرورقت عيناك بالدمع وشرقت بالكلمات ، وأوشكت عواطفك أن تثور ، فتشبثت بي وقد طفت مشاعرك الطاهرة على نوازع طفولتك وهي تدفعك إلى البحر . ولكني قلت لك : « ما ذا جرى ، يا رجل ؟ » — فكفكفت عبراتك وتماسكت وكتمت خفقات قلبك الذي ، ثم تطلعت عينك بي فما تطرف حتى تحرك القطار ، وتواريت أنا عن ناظريك ...

لشد ما حز في قلبي أن تحمل نفسك على أن تكفكف عبراتك الرقراقة الغالية ، يا بني ، لتبدو رجلا قبل الأوان !

آه ، يا بني ، لقد كانت هذه الكلمة — كلمة الرجولة — شديدة الوطأة على نفسك لأنها حمّلت طفولتك فوق الطاقة ، وكلفتها فوق الجهد ، ولكن —

ولكن إلى اللقاء ، يا بني ، على سيف البحر حيث تموج الدنيا بفلسفة الحرية في معاني الهوى والمرى !

* * *

لقد عودتك ، يا بني ، أن أفسح صدري لطهر الطفولة وسخفها ، وأن أسع عبثها وعبوسها ، وأن أتقبل دموعها وطيشها ، وأن أستسيغ حلوها ومرها ، فلا تنقض طفولتك كلها أمام خالك فيحس الجفوة ، أو يستشعر الضيق ، أو يحد الملل !

وإذا ربّت على كتفك في عطف ، أو قبلك في حنان ، أو ضمك في شوق ، فلم تحس لين كفه ، ولا حرارة قلبه ، ولا دفء صدره ، فلا تجزع ولا تتململ ، لأنك لن تلمس اللين والحرارة والدفء إلا في رجل واحد هو أنا ... لأنني أنا أبوك !

وإذا طلبت إليه أمراً فأغضى عنك ، أو أمهن رغبتك ، فلا تحزن لأنني أنا وحدي الذي لا أضيق بحاجاتك ولا أسخر من دموعك ... أنا أبوك !

وإذا ابتسمت فعبس أو عبست فابتسم ، فلا تأس لأنني أنا وحدي الذي أشاطرك سرورك وحزنك ، وأشاركك مرحك وشجوك . . أنا أبوك !

وإذا افتقدتني — على حين فجأة — فضاقت نفسك بالحياة وهي تتألق فيك ، ومزقت من اللذة وهي تضطرم في قلبك ، فلا تدع شجونك تستلبك من سعادتك وأنت على شاطئ البحر كالفراشة الطروب تطير وتقع فلا تقع إلا على مرح وبهجة !

وإذا أحسست بالغربة والضياع فلا تضق بما ترى ولا تفزع مما تجد ، فغداً أكون معك !

وإلى اللقاء ، يا بني ، على سيف البحر حيث تموج الدنيا بفلسفة الحرية في معاني الهوى والمرى !

* * *

لست أسى ، يا بني ، على عمر مضى خلوٌ من نبضات القلب ، ولا على شباب انطوى صفر من دقات الهوى ، لأنك أنت أقمت قلبي بالحب والأمل والحياة جميعاً !

فأنت النبتة اليانعة النضيرة في صحراء العمر ، وأنت الزهرة الرقراقة الزاهية في بيداء الحياة ، وأنت النشاط في زمن الخمول ، والقوة في سني الضعف ، والخلود في دنيا الفناء !

وأنت نور العين إن أظلمت الحياة ، وانطوت زهرة الشباب ، وأنت بهجة القلب إن ذوى العود ووهى الجلد ... إن أوشكت القدم أن تنزلق إلى طريق الأبد !

وأنت عمري الدائم ، وصوتي المدوي ، وحكمتي الأبدية ، وروحي الخالدة !

فدعني ، يا بنيّ ، أوقع على أوتار القيثارة الإلهية — قلبي — لحن الحنان الأبوي الذي فاضت به مشاعري يوم أن دفئني العطف لأول عند نزوات طفولتك الطائشة ، فافترقنا لأول مرة !

إن ألحاني شجية آخاذة ، غير أن عقلك الغض لا يدرك مغزاها ، فأنت ما تبرح في جهلك الأول ... ولكن حين تصقل السنون عقلك ، وتشحذ الأيام ذهنك ، فيستقيم منطقك ، ويشتد رأيك ... حينذاك أجلس إلى نفسك ، وأستكشف — في إمعان — ما وراء هذا النغم الحلو ...

لقد رأيت يا بنيّ — ذات مرة — رجلاً يضنّ على صغاره بالمنديل ويبخل بالثياب ، ولكنني رأيت — أيضاً — الحيوان يطعم صغاره ويستميت في السغبة ، ورأيت الطير يزقّ فراخه ويستعذب المخمصة !

آه ، يا من أفنيت عمرك صعلوكاً في دنيا العزوبة !

لقد سقطت حين نبذت معاني الأبوة في نفسك ، وصغرت حين مسحت على آثار البنوة في دارك ، وانحطت حين استعبدت لأنانيتك الوضيعة !

بالحكمتك أيها الفلاح الساذج حين ذهبت تجتث جذور الشجرة التي لا تثمر ولا تؤتي الظل !

ويا بنيّ ، لا تجزع إن تراءت لك كآبتي فوق عقلك الصغير ، وبدت لك خواطري فوق قلبك الغضّ !

فإلى اللقاء على سيف البحر حيث تموج الدنيا بفلسفة الحرية في معاني الهوى والمرى ...

وإلى اللقاء حين تصقل السنون عقلك وتشحذ الأيام ذهنك فترقى إلى المعاني السامية التي يفيض بها قلب أبيك الكبير ، وهي تتدفق بالعطف والحنان ...

كامل محمود حبيب